الرباط المقدس

لتوفيق الحكيم

حينما ظهر هـذا الكتـاب ، كتبت عنـه مقـالاً في مجلة الرسالة جاءت فيه هذه الفقرات :

« خيل إلي في وقت من الأوقات أن توفيق الحكيم قد بلغ مداه ، وارتقى آفاقه وأنه منذ الآن سيكرر نفسه ، مع شيء من التحوير والتعديل .

« خيل إلي هذا وأنا أقرأ « سليمان الحكيم » فأجد فيه اختلافاً ما في موضوعه وشخصياته عن أهل الكهف ، وشهرزاد ، وبيجماليون ؛ ولكنه يتفق معها في طريقة تناول الموضوع ، وفي إدارة الحوار مع تعديل طفيف .

« ثم كتب « زهرة العمر » ، فلاحت بوادر آفاق جديدة ، ولكن لها شبهاً في خطرات المصباح الأخضر والبرج العـاجي . وإن ظهرت في صـورة رسائل لا في هيئة مقالات . فالفرق في صميم العمل الفني هنا كذلك طفيف .

ولكن هذا الوهم قد تبدد من نفسي وأنا أقرأ « الرباط المقدس » كتابه الأخير . هنا نغمة جديدة ، وعطر جديد ...

« فالخطوات الذهنيـة — التي اعتدناهـا من المؤلف — لا تقف هنـا عارية ، تتخايل بالألاقة والالتماع . إنما هي هنا تسري في مادة حيـة ، وتخطر في إطار من اللحم والدم يمنحها الحرارة والحياة ... هنا قلب إنساني يضبطه ويدل على حركاتـه ذهن فنان . وهذه اللمحة الجديدة في فن توفيق الحكيم .

« لقد كان في « عـودة الروح » و « يوميـات نائب في الأرياف » شيء من هذا . ولكن النبض الحيوي كان هناك باهتاً ساكناً غير ملحوظ في ثنايا التنسيق

الفني الدقيق . أما في «الرباط المقدس» فالنبض الحيوي يساوق التنسيق الفني ، ويبدو كلاهما كاللحمة والسدى في النسيج الواحد ، أو كالجسد الواحد في الكائن الحي .

« وفي الكتاب صفحات من خطرات الفكر ، ووثبات الغريزة ، وسبحات الروح ، ووسوسة الضمير ، ونزوات اللحم والدم ، وصراع القوى البشرية في النفس الواحدة ، يقل نظيرها في كل ما سجله الأدب العربي الحديث .

« لقد أدركت بعد قراءة الكتاب خطورة الأحكام النهائية على المعاصرين . فلقد كنت أعد بحثاً عن « المدارس الأدبية المعاصرة » وكدت أنتهي إلى حكم قاطع في فن توفيق الحكيم وطبيعته وطريقته ... فهأنذا أجدني في حاجة إلى تعديلات أستمد حيثياتها من « الرباط المقدس » .

كتبت هذه الفقرات ، قبل أن ينشر أحد أصدقاء الأستاذ توفيق شيئاً منقولا عن الفرنسية . وقبل أن يلمح صديق آخر من أصدقائه كذلك إلى العلاقة بين الكراسة الحمراء — وهي أحر وأحيا ما في الرباط المقدس — وهذا الذي نشر منقولا عن اللغة الفرنسية !

لقد كان حسي صادقاً إذن بأن هناك طعما جديداً غير الطعم المعروف لتوفيق الحكيم !!!

★ ★ ★

القصة قصة امرأة تخون ، امرأة منحرفة ، تدعوها نوازع اللحم والدم فتستجيب ، وتغريها بدعة العصر في التحلل من القيود ، فتفلسف السقوط بالحرية والتجديد ، وتنظر إلى ما تسميه « مغامرة » نظرتها إلى أمر يومي صغير ، لا يجوز أن يحطم عشاً ، ولا أن يحدث ضجة ؛ ثم تسخر ما شاءت لها السخرية من رجعية الرجل ، ومن أنانيته ، لأنه يتطلب منها فراشاً نظيفاً ، وذرية مضمونة !

وقصة رجل سوى الفطرة ، تربى في انكلترا ، ولكنه لم ينحل ، وعرف كيف يؤدي حقوق الزوجية كاملة ، ولكن في حدود الفطرة السوية . فضاقت

المرأة المنحرفة بهذه الحدود ، وتاقت نفسها إلى « المغامرة » اللذيذة ، والاستجابة الممنوعة .

وهي تصف في مذكراتها — الكراسة الحمراء — لحظات هذه الاستجابة وصفاً حسياً عنيفاً . تصفها كما وقعت محوطة بالوهج واللهب ، مغلفة باللذة الحيوانية الهائجة، غارقة في بحران الغيبوبة ... فاذا وقعت هذه المذكرات مصادفة في يد الزوج المسكين الواثق من نظافة فراشه ، كانت المفاجأة التي تهد القوى ، وتذهل اللهب ، وتمسخ كل لحظة من لحظات الماضي ، فتحيلها غولا لئيما ، يعذب فريسته بالسخرية اللاذعة ، قبل أن ينقض عليها ليمزقها شر تمزيق !

والقصة بعد هذا كله قصة « راهب الفكر » الذي رأى هذه المرأة أول مرة فرفعها إلى مصاف الحوريات في الفراديس ، ونسج حولها هالات من القداسة والسحر ، وأقامها في مصاف الآلهة والقديسين ... ثم ... ثم إذا هو يطلع على الكارثة مع الزوج المنكوب ، فيفجع في أحلامه ، فجيعة الزوج في كيانه ، ويحس لها بالحقد والكراهية والازدراء ، ويخيل إليه أنها انتهت في عالمه ...

ولكن !

أجل . ولكنها « المرأة » المرأة الخالدة في ضمير كل رجل ، وراهب الفكر هو كذلك « رجل » هو مزيج من اللحم والدم والفكر والشعور . ولئن كانت هذه الأفعى قد سحرت فيه رجل الفكر والشعور أيام أن كانت — عنده على الأقل — حورية أو قديسة ، فانها اليوم لتستطيع أن تسحر فيه رجل اللحم والدم بعطرها العبق ، ونكهتها الأنثوية ؛ وأن تدعوه بصوت الغريزة فيستجيب . ولولا سبب خارج عن إرادته — حسب تعبير القانون — لتم كل شي في عالم الواقع المحسوس ، بعد أن تم في عالم الضمير المكنون .

يا للمرأة ! بل يا للحياة في صورة المرأة !

وعلى الهامش رجل آخر أوقعته مذكرات الزوجة المفضوحة في شك مفترس

في عشه وفراشه هو الآخر ، ولكنه لايستطيع الجزم واليقين ، ولا يطيق جحيم الشك المؤلم فيستريح من قريب ... ينتحر ! ولا يستغرق من القصة إلا القليل الذي يكفي للموازنة السريعة بين قسوة اليقين المحتملة على كل حال ، وقسوة الشك التي تجل عن الاحتمال .

وأحب هنا أن أحدد الشبهة التي أشرت إليها في أول الحديث :

إن هذه المرأة . هي المرأة كما يتصورها توفيق الحكيم . فالمرأة إما حورية مقدسة ، وإما بغي فاجرة ، ولا وجود للمرأة السوية في كل أعماله . فصورتها هنا صورة معهودة عند توفيق ، أصيلة في تصوراته ، ولا حاجة به لأن يجتلبها من وراء البحار ! أما الانفعالات الحية فهي الشيء الجديد في فن توفيق !

وبعد فأشهد أن الصفحات التي تناول فيها المؤلف عرض نظريات المرأة ودواعيها ووصف نزواتها ومفاتنها ، وكشف حيلها ومغرياتها . كالصفحات التي صور فيها كارثة الرجل وعاطفته ، وأوضح منطقه واتجاهه . كالصفحات التي أبرز فيها « راهب الفكر » ونزعاته ، واختلاجاته ونزواته . كالصفحات التي كشفت روح العصر ، والعوامل الخفية والظاهرة التي تعمل في كيانه ... كلها صفحات رائعة فيها نكهة النضوج الأخير .

ولكن الصفحات التي عرض فيها صورة « الشك » لم تجيء في مستوى تلك الصفحات . جاءت مختصرة ومجملة ، جاءت في لمسات عريضة ، لم تتناول الجزئيات الثمينة في لحظات الشك المريرة . وختمت في عجلة ظاهرة .

حقيقة إن « التنسيق الفني » سمة توفيق الحكيم الأصيلة . هو الذي يجره في هذه القصة — حسب وضعها الحالي — إلى أن يختصر في صورة الشك ، ليوزع أشخاص الرواية على المسرح توزيعاً فنياً ، بعضهم يحتل مقدمة المسرح ويتراءى دائماً للجمهور ، وبعضهم يتراءى من بين الكواليس ، ثم يختفي ويفسح المجال للبطل الأصيل . فكيان

القاسة قائم على مواجهة الرجل السوي بالمرأة المنحرفة في العصر الحديث . وعلى اضطراب رجل الفكر بين الغريزة والوجدان أمام المرأة الخالدة ، وعلى منطق الغريزة العميقة ومنطق الفكر المحلق ، وعلى لغة الفناء الأرضي ولغة الخلود السماوي ... الخ . فلا مجال لعرض صورة « الشك » إلا في هذا الحيز المحدود .

ولكنني أخشى أن يكون تصوير « الشك » الحي في هذا المستوى الناضج ، في حاجة إلى طاقة أخرى لم يزاولها إلى اليوم توفيق الحكيم . طاقة الأضواء تتداخل في الظلال ، لا طاقة الخطوط الحاسمة تفرق بين الظل والنور !

★ ★ ★

ثم لقد استوقفني المؤلف عند هذا الحوار بين راهب الفكر والزوجة المستهترة الساخرة من غيرة الرجل على فراشه :

— « ولماذا لم تتكلم بهذه الحماسة عن خيانة الأزواج ؟

— إني لم أبح للزوج أن يخون زوجته

— وإذ خانها . أليس لها الحق أن تخونه ؟

— لا

— النغمة القديمة التي يسمعها من الرجال . تبيحون لأنفسكم ما تحرمون علينا لأنكم أنتم السادة ونحن الاماء .

— بل لأن الرجل هو الذي يعـــرق ، والمرأة هي التي تنفق . اكدحي كما يكدح زوجك واعرقي كما يعرق ؛ فاذا تساويتما في التضحيات تساويتما في الحقوق . لا أقول إن الرجل يحب أن يخون ولكنه إذا خان خان من ماله . ولكن الزوجة تخون من مال زوجها . ثم هنالك شيء آخر ... هو النسل ... فالزوج يخـون ولا يدخل على زوجته نسلاً مدلساً . أما الزوجة فاذا خانت أدخلت على زوجها نسلاً ليس من صلبه . لن تكون هناك مساواة مطلقة بينكن وبين الرجال في هذا الاثم إلا إذا تطور الزمن تطوراً آخر فرأينا الزوجة تناضل في الحياة وتكسب بالقدر الذي يربحه الزوج ... ثم يستطاع بواسطـــة العلم أو بغيره من الوسائل أن يفرز

للزوج نسله عن نسل غيره بغير وقوع شك أو ارتياب ... إلى أن يتم ذلك فـــلا تتحدث عن المساواة في الخيانة .

ـ إذا حدث ذلك فلن تكون هنالك زوجية . ولن يكون لها محل على الاطلاق.
ـ ولن يكون للخيانة عندكن لذة ولا طعم . إذ لن يكون الزوج ضحيتها .
ـ يالك من خبيث ! » ...

أحسب أن هناك اعتبارات أخرى غير الاعتبارات الاقتصادية الرخيصة الخاصة بالانفاق والاعتبارات العائلية الخاصة بالنسل ؛ بل أكبر من العوامل النفسية بين الرجل والمرأة كذلك، فلندع هذا كله ، ولندع منطق الأخلاق أيضاً ، ولننظر من ورائه إلى منطق الطبيعة ...

أحسب أن الطبيعة الخالدة كانت تقصد الاشارة إلى معنى خاص ، وهي تقدم أنثى الانسان ـ وحدها دون بقية إناث الحيوان ـ مختومة في الحالات السوية الغالبة ، مقفلة بذلك القفل الطبيعي الخاص ! وأنها لم تحسب حساب العلم في تطوراته التي يستطيع بها فرز النسل أو لا يستطيع . فقامت هي بوسائلها الخفية الخاصة بضمان العفة في الحدود التي تملكها . وما كان عمل فرسان القرون الوسطى حين كانوا يلبسون زوجاتهم أحزمة ذات قفل في أثناء اغترابهم للحرب ، إلا محاكاة لعمل الطبيعة وامتداداً له في صورة عنيفة . فمها كانت نظرتنا نحن اليوم إلى طريقة التنفيذ فيجب أن نقدر أصالة الفكرة ، وعمقها في تفكير الطبيعة ، وإذا كان عصر من العصور لا يسمح بفكرة القفل المادي ، فان هذا لا ينفي أن فكرة القفل المعنوي أصيلة في صميم الطبيعة كلها ، لا في صميم النفس الانسانية وحدها !

إن الطبيعة لأحكم من كل فلسفة أخلاقية ، ومن كل سفسطة إباحية ، وإن كل انحراف عن سنتها لهو انزلاق إلى مهاوي الفناء !

ذلك ما يجب أن نلقي بالنا إليه ونحن نعالج مثل هذه الأمور سواء في البحوث العلمية أو الآداب والفنون !